فتح خفي الألطاف بتفسير سورة ق



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، وجعله نورًا للقلوب، وشفاء لما في الصدور، وموعظة للمتقين، وحجة على العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي أنزل الله عليه الكتاب، وعلّمه الحكمة، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

أما بعد:



فإن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، أنزله لهداية الإنسان وإخراجه من ظلمات الجهل والشك والغفلة إلى نور الإيمان واليقين والبصيرة، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16] وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، ولا يستغني عنه المسلم في إصلاح قلبه، وتقويم سلوكه، وبناء تصوره عن الله والإنسان والحياة والموت والدار الآخرة.

وقد جعل الله تعالى تلاوة القرآن عبادة، ورتب على كل حرف منه أجرًا، غير أن المقصود من إنزاله لا يقف عند حدود التلاوة وحسن الأداء، على عظم فضلهما، بل يتجاوز ذلك إلى فهم معانيه، وتدبر آياته، والاهتداء بهديه، والعمل بأحكامه، والاتعاظ بوعده ووعيده، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] وتدبر القرآن إنما يكون بتلاوته مع استشعار القارئ لعظمة الله الذي يخاطبه، وأن كل أمر فيه يدعوه إلى الامتثال، وكل نهي يحذره من المخالفة، وكل قصة تسوق إليه عبرة، وكل وعد يفتح له باب الرجاء، وكل وعيد يبعث في نفسه الخشية والاستعداد.

وشرف القرآن مستمد من كونه كلام رب العالمين؛ ولذلك شرف الله كل من اتصل به علمًا وعملًا وتعليمًا، فالشهر الذي أنزل فيه خير الشهور، والليلة التي ابتدأ نزوله فيها خير من ألف شهر، والرسول الذي تلقاه من الملائكة هو جبريل



الأمين، والرسول الذي أنزل على قلبه هو محمد ﷺ خاتم النبيين، والأمة التي حملته خير أمة أخرجت للناس ما أقامت حدوده واهتدت بهديه.

وخير المؤمنين من تعلم القرآن وعلمه لغيره كما قال النبي ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" رواه البخاري.

ومن هذا المنطلق جاء هذا الكتاب محاولة للانتفاع من هدايات سورة عظيمة من سور القرآن الكريم، هي سورة ق، والتوقف مع آياتها وقفات تفسيرية وإيمانية وتربوية.

وقد وقع الاختيار على هذه السورة المباركة لما لها من منزلة كبيرة لدرجة أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المجامع الكبرى، فكان يخطب بها على المنبر يوم الجمعة وكان يقرأها في صلاة العيد؛ كما في الحديث عن أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها أنها قالت: "ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس" رواه مسلم.

وتكرار قراءتها في هذه المواطن يدل على عظم شأنها، وشدة حاجة النفوس إلى معانيها، وما تشتمل عليه من تذكير وإنذار وإيقاظ.

وقد بيّن الحافظ ابن كثير رحمه الله أن النبي ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.



فهي سورة قصيرة في عدد آياتها، عظيمة في مقاصدها، قوية في فواصلها، متتابعة في مشاهدها، تنقل قارئها من إنكار المشركين للبعث إلى دلائل القدرة في السماء والأرض، ومن مصارع المكذبين إلى إحاطة علم الله بالإنسان، ومن سكرة الموت إلى النفخ في الصور، ومن الحشر والعرض إلى الحساب والجزاء، ثم تعرض مشهدي النار والجنة، وتختم بالأمر بالتذكير بالقرآن.

والمقصد الجامع للسورة هو إيقاظ قلب الإنسان من الغفلة، وإقامة الحجة عليه في حقيقة البعث والجزاء، حتى يستعد للقاء الله بقلب منيب وعمل صالح، وهي لا تعرض الآخرة على أنها خبر بعيد، بل تسوق مشاهدها بأسلوب يجعل السامع كأنه يراها رأي العين؛ فيعاين سكرة الموت، ويسمع نفخة الصور، ونداء المنادي، ويشاهد تشقق الأرض عن الخلائق، ويرى السائق والشهيد، ويسمع الخصومة بين الإنسان وقرينه، ثم يقف أمام مشهدي الجنة والنار، وهذا العرض الحي من أعظم ما يعالج قسوة القلب، وطول الأمل، والاغترار بالدنيا.

فجاء اختيار هذه السورة رغبة في وصل التلاوة بالفهم، والحفظ بالتدبر، والمعرفة بالعمل؛ ليقرأها المسلم بعد ذلك قراءة جديدة، حاضر القلب، مدركًا لتسلسل موضوعاتها، مستشعرًا لخطابها ووعيدها وبشارتها.

منهجية التفسير في هذا الكتاب

سلكت في هذا الكتاب منهجًا تفسيريًا تربويًا يقوم على السير مع آيات السورة بحسب ترتيبها، مع تقسيمها إلى وحدات موضوعية مترابطة، وجعلت كل وحدة



في فصل مستقل بحسب موضوعها وموقعها من مقصد السورة. فجاء الكتاب في عشرة فصول تناولت القرآن المجيد وحقيقة البعث، وآيات الله الكونية الدالة على قدرته، والوعيد الإلهي للمكذبين، وإحاطة علم الله بالإنسان، وحقيقة الموت ونفخة البعث والنشور، ومشهد العرض والخصومة بين يدي الله، والقرين والخصومة يوم القيامة، ومشهد الجنة والنار، ثم خاتمة السورة في الأمر بالتذكير بالقرآن.

واعتمدت في بيان المعاني على تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن آياته يصدق بعضها بعضًا، ويفسر بعضها بعضًا، ثم على ما صح من سنة النبي ﷺ، وعلى ما نُقل عن الصحابة والتابعين وأئمة التفسير، واستفدت من أقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين، مع عرض أشهر الأقوال عند تعددها، وبيان ما يظهر رجحانه في ضوء السياق والدليل، والوقوف فيما استأثر الله بعلمه من أمور الغيب، بعيدًا عن التكلف والجزم بغير برهان.

واهتممت بشرح المفردات والتراكيب التي يحتاج القارئ إلى بيانها، وبيان الدلالات اللغوية التي تعين على فهم الآيات، وربط كل آية بسياقها وبالمقصد العام للسورة. كما حرصت على بيان التناسب بين المقاطع، وتسلسل الحجج والمشاهد، حتى لا يقرأ القارئ الآيات متفرقة عن بنائها الكلي؛ فالسورة وحدة متماسكة تبدأ بإنكار البعث وتنتهي بالتذكير به والإنذار بالقرآن.

واعتنيت بإيراد الأحاديث والآثار ذات الصلة، مع بيان درجتها عند الحاجة،



والتنبيه على ما لا يصح نسبته إلى النبي ﷺ، أو ما اشتهر بين الناس من قصص وأقوال تحتاج إلى تحرير.

كما تناولت بعض المسائل العقدية والفكرية التي تثيرها الآيات، مثل حقيقة الوحي، وإثبات البعث، وعلم الله، وكتابة الأعمال، وحقيقة الموت، والقرين، والجنة والنار، مع الرد على بعض الشبهات والمفاهيم الخاطئة بأسلوب واضح قريب.

ولم أقصد جمع كل ما قيل في السورة، ولا إلى استقصاء المسائل اللغوية والفقهية والعقدية المتعلقة بها؛ فإن ذلك يخرج بالكتاب عن غايته، وإنما قصدت تقديم تفسير يجمع بين صحة المعنى ووضوح العبارة وحضور الأثر الإيماني والتربوي، مع قدر من التفصيل يعين القارئ على الفهم، دون أن يغرقه في الخلافات والاستطرادات التي لا يحتاج إليها.

أيضا حرصت في نهاية كل فصل أن أذكر الآثار الإيمانية والتربوية، واستخراج الهدايات العملية بخلاصة مركزة تسهل مراجعة المعاني وتثبيتها واستعمالها في التعليم والمواعظ والدروس.

وقد حرصت بفضل الله على أن يكون هذا التفسير مناسبا لطلاب العلم وللأئمة والخطباء والوعاظ ومعلمي القرآن، ولمن يقدمون الدروس الإيمانية والتربوية في المساجد والمراكز الإسلامية.



كما يمكن أن ينتفع به الآباء والأمهات والمربون في تذكير أبنائهم بحقائق الإيمان والموت والآخرة، وأن يكون مادة للمدارسة في الحلقات القرآنية والمجالس الأسرية والبرامج الدعوية.

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومعلمه، وأن يحيي بالقرآن قلوبنا، ويشرح به صدورنا، ويجعله حجة لنا لا علينا، ونورًا لنا في الدنيا، وأنيسًا في القبر، وشفيعًا يوم القيامة، وأن يرزقنا قلوبًا منيبة تخشى وعيده وترجو رحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه

د. حسين عامر

مدينة لافال ـ كندا

غرة شهر ربيع الأول 1448

لتحميل الكتاب اضغط هنا

فتح خفي الألطاف بتفسير سورة ق